المنزع العقلي في كتابات الجاحظ

محفوظ غزال

تمهيد:

ما كان لنصٍّ أن يتمكّن في قلوب أهله وعقولهم تمكُّنَ القرآن، فقد مَلَكَ على أهله النظر والتأمل بما اقتادهم من ضرورة إعمال العقل والتفكر، فكانت المراحل التاريخية للثقافة العربية الإسلامية تدرُّجًا في البحث العقلي وانتقالا من التقبل النقلي البسيط إلى النظر والاستدلال. وإذا كانت المرحلة العقلية من تاريخ هذه الثقافة قد تأخّرت عن مرحلة الوحي فإنها كانت تدرُّجًا منطقيا في سلّم المعارف والعلوم وآليات البحث.

وقد كان للمنزع العقلي الذي تدرّج في نشوئه أثرٌ كبيرٌ في جعل الثقافة العربية الإسلامية على ما هي عليه بين الأمم. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا الحديث عن المنزع العقلي مبتورا دون حديثنا عن أبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، فقد كان محطة هامة من محطات الأدب والفكر بما خلّده من مؤلفات تشهد له بالتمثل والاستيعاب حينا وبالسّبق والتفرُّد أحيانا. وحسبُه من الفضل أن شهد له خصومه بالمكانة السّنيّة والدرجة العليّة. فالمسعودي صاحب "**مروج الذهب**" رغم كونه خصما شيعيا للجاحظ المعتزلي يقول: "**وكُتُبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ**".

ولكنْ تماما كما تعدّدت مجالات بحثه ومواضيع تأليفه تعدّدت زوايا النظر لأعماله لذلك يكون لزامًا على من رام بحثا في مؤلّفاته أن يُحدّد أهدافه منذ البدء حتى لا يقع في ما وقع فيه الجاحظ نفسُه من تداخل المواضيع وتشابك مجالات البحث. وما دام هدفُ هذه الأوراق مدرسيًّا فبنا أن نحتكم إلى ما ضبطه سِفرُ البرامج الرسمية لدراسة هذا المحور من أهداف هي التالية:

1/ يتمُّ الاهتمام في تبين الخصائص الفنية **بالحجاج** خاصة وذلك بالنظر في:

- بنية النص الحجاجي.
- تنظيمه.
- سيرورته (الحجج وأنواعها / الأمثلة ومصادرها).

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

2/ يتمُّ الاهتمام في كتابات الجاحظ بالمنهج العلمي وتجليات الفكر الاعتزالي في مجالات المعرفة المختلفة:

- في المنهج العلمي: الموضوعية/الشك/التجربة ومقوماتها كالملاحظة والاستقراء والموازنة والترتيب.
- في الفكر الاعتزالي: كيفية الاستدلال على بعض المسائل الفكرية والكلامية بالحجج العقلية ومن طرائق الاستدلال :النقد/الشك/الجدل/الاستقراء.

وقد حدّد سفر البرامج أثرَيْن للجاحظ منطلقا للعمل وهما: **الحيوان/ الرسائل**. ولكن لا يذهبنّ الظنُّ إلى أنّ التلميذ مطالبٌ بالاطلاع على كل هذه الآثار تدقيقا وتفصيلا فهذا ممّا يستدعي سنواتِ دراسة للمتخصّص

بله التلميذ..إنما يكفي التلميذَ أن يعلم أهمَّ المضامين والغايات من كلِّ أثر في شكل نماذج لأنَّه مَدعُوٌّ إلى تبيُّن **مظاهر من المنزع العقلي في هذه الآثار** أي يكفيه من الكلِّ بعضُ أجزائه. هذا مع التأكيد على كون كتاب "**البيان والتبيين**" وإن لم يُدْعَ التلميذ إلى دراسة نصوص منه فإنه من الأهمية بمكان يجعل الاطلاع على خصائصه ومضامينه مُهِمًّا فلن يجد عنه مَصْرِفا لأنه أولا من آخر ما كتب الجاحظ أي أنه يمثِّل مرحلة الاكتمال في فكره، وثانيا لأنه السبيلُ إلى فهم آراء الجاحظ في الأدب واللغة خاصة. وعلى هذا الأساس طعَّمتُ هذه الأوراق ببعض ما يعين التلميذ على تمثُّله. ولمزيد التوضيح رأينا أن نُجمل القول في كلِّ أثر من الآثار المذكورة حتى تكون عونا للتلميذ في إنشاء رؤية بها يفهم. لكن عليه أن يَحْذَرَ سردَ المعلومات حول هذه الآثار لأنَّه **لا يدرس كتبا بل يدرس ظاهرة في كتب** هي ظاهرة المنزع العقلي. فليتنبَّه.

الحيوان: بحثٌ ضخمٌ أنشأه الجاحظ في سبعة أجزاء. وتسميته هي مضمونه الأساسي. فهو إذن بحث في عالم الحيوان مثَّل سبْقا في زمانه لأنه أوَّلُ دراسة شبهِ علميَّةٍ للحيوان دون تخصيص. أمَّا الغاية منه فقد شاء الجاحظ أن يبيِّن ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة. والكتاب وثيقُ الصلة بعلم الكلام لأن الجاحظ استهدف من تأليفه إظهار وحدة الطبيعة وتساوي أجزائها تدليلا على وحدة الخالق في إطار الفكر الاعتزالي. فدرَس الحيوان الكبير والحشرة الصغيرة. وقد شاء أن يبيِّن فيه دلالة دقة المصنوع على حكمة الصانع. وأمَّا مصادره التي رجع إليها فكثيرة وأهمُّها القرآن والتوراة والإنجيل ومباحث من كتابات أرسطو ويسميه"**صاحب المنطق**" ومباحث من كتابات إقليمون صاحب الفراسة وأبيات من الشعر العربي وأساطير... وغير ذلك.

ولكن لا يظنَّنَّ ظانٌّ أنَّ الكتاب خالصٌ للحيوان فقد شهد من الموسوعيَّة ما جعله كتابا تضمَّن **من كلِّ فنٍّ خبر**. فيه حديث عن الحيوان والإنسان والفكر وفيه الشعر والنثر والحكمة والنوادرُ والمُلَحُ والخطبُ إلى غير ذلك. ولكن الغاية منه إثبات حكمة الخالق من خلال المخلوقات. فهو دعوة إلى النظر والتفكُّر في الوجود. ولعلَّ الذي دعا الجاحظ إلى تحديد هذه الغاية من الكتاب دون الغاية العلمية الخالصة هو انتماؤه الاعتزالي وتحديدا في موقف للمعتزلة من فكرة "**فطرية التوحيد**" فقد "**أنكروا أن تكون معرفة الله فطرية واحتجوا بأن الناس لو فُطروا على معرفة الله لما اختلفوا. ومذهبهم النظر والتفكر** (دليل عقلي) ...أما **معرفة الله عند الأشاعرة فواجبة بالشرع** (دليل نقلي)".

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

الرسائل: مجموعة من الرسائل مختلفة المضامين بين دين وفكر واجتماع وأخلاق نزع الجاحظ في أغلبها منزعا عقليًّا في التناول.

البيان والتبيين: مَعْرِضٌ للخطابة والشعر والبلاغة تناولها الجاحظ تناولا عقليا معتبرًا أنَّ البيان (الإفصاح) من جليل المنن التي وُهبت للإنسان. وهو كتابٌ جمع شعرا ونثرا وخُطَبًا ونَوَادِرَ. ولهذا الكتاب قيمة أدبيَّة وقيمة تاريخيَّة، فمن الناحية الأدبيَّة هو ركنُ البيان وموئلُ الأدباء، وأمَّا قيمته التاريخيَّة فهي في جمعه الثقافاتِ

المختلفة كاليونانية والهنديّة والفارسيّة وغيرها.وقد جرى أسلوبه على الطريقة الجاحظية من الاستطراد (التوسع والخروج من موضوع إلى موضوع) والأخذ من كل شيء بطرف.

ولكن مرّة أخرى نذكّر أن التلميذ لا يدرس كتابا بل يرصد المنزع العقلي فيه فالمهمُّ أن يعلم تجلّيات هذا المنزع فنّيا ومضمونيا.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

1/الظروف الفكرية التي ظهر فيها الجاحظ:

وجدْتُ من المفيد للتلميذ وهو مُقْدِمٌ على دراسة المنزع العقلي عند الجاحظ أن يتبيّن بعضَ الملامح التاريخية لظهور هذا المنزع وخاصة ما تعلق بالمعتزلة لأنها الفرقة التي حملتْ لواء العقل وجعلته غاية ووسيلة. **لكن** على التلميذ أن يتبيّن أيضا أنّ هذا الذي نحن بصدده **لا يعدو** أن يكون توضيحا للظروف التي حفّتْ بانتعاش المنزع العقلي.

ظَهَرَ الاعتزالُ موقفًا عقائديا في خِضَمّ الجدل القائم بين مختلف الفرق الإسلامية التي ظهرت على الساحة الدينية في القرن الهجريّ الأول. وهذا الجدل الذي دار بين الفرق هو الذي أسّس ما يُسمّى"**علم الكلام**" الذي يُعرّفه ابن خلدون في مقدمته بقوله: "**هو عِلْمٌ يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية**". فالمعتزلة إذن فرقة كلامية إسلامية في نشأتها وفي المسائل التي خاضت فيها. لكنّها تأثرت بالفلسفة اليونانية ووظّفت مناهجها في الدفاع عن مقالاتها وآرائها.

لقد أَلْقَحتِ الثقافةُ اليونانية الاعتزالَ لكن دون أن يُخرجه ذلك عن دائرة الفكر الإسلامي وعن التزامه بالتوحيد وبحقائق التنزيل. وما إصرارُ رجال الاعتزال على تسمية أنفسهم "**أهل التوحيد والعدل**" إلا تأكيدٌ على هذا الالتزام بالإسلام في مواجهة الفرق الأخرى في المرحلة الأولى ثم مواجهة أهل الملل المخالفة من خارج الدين في مرحلة ثانية. وهذا الجدل الدائر بين المذاهب والفرق الإسلامية من جهة والمسلمين ومَن خالفهم عقيدةً من جهة أخرى هو الذي كان منفذا للثقافة الهيلينية والشرقية إلى العالم العربي والإسلامي.

إن الأصول الخمسة التي اختزل فيها المعتزلة مسائل بحثهم تختزل كذلك ردَّهم على الخصوم مهما كانت مشاربهم. يقول القاضي عبد الجبار: "**إذا سأل سائل ولم اقتصرتم على هذه الأصول الخمسة؟ يكون الجواب: لا خلاف أن المخالفين لنا لا يَعُدُّون أحدَ هذه الأصول. ألا ترى أنّ خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل في التوحيد وخلاف المجبرة بأسرهم دخل في باب العدل وخلاف المرجئة دخل في باب الوعد والوعيد وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين وخلاف الإمامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**".

في إطار جو الاعتزال هذا تأثر الجاحظ بأستاذه إبراهيم بن سَيّار النَّظّام الذي "**طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة**" كما يرى الشهرستاني في كتابه "**الملل والنِّحل**". فامتزاج علم الكلام

بالفلسفة كان مع جيل النَّظَّام والعلاَّف والجاحظ. يقول الجاحظ: "**وليس يكون المتكلِّم جامعا لأقطار الكلام متمكِّنا في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يُحسن من كلام الدين في وزن الذي يُحسن من كلام الفلسفة والعالِمُ عندنا هو الذي يجمعهما**".

لقد جاءت الحاجة إلى النظر العقلي من إحساس أهل الاعتزال بأن خصومهم من الملل الأخرى قد تسلَّحوا بأسلحة العقل لذلك لجؤوا إلى الفلسفة للذبِّ عن الدين لا لغاية الفلسفة في ذاتها، وبذلك "**اكتشف العقل قواه**". ومن وجوه التأثر بالفلسفة توظيفها في مجال الإلهيات وهو ما لا عهد للمسلمين به فهو موقف جديد وطرحٌ مخالف خاصة في ما يتعلق بمبدأ معرفة الله وإثبات وجوده. ويُعتبر "**ثمامة بن أشرس**" أوَّلَ من قال بتقديم المعرفة العقلية على المعرفة السمعية. فالعقل إذن أصبح القدرة والأداة التي بها يُكتسبُ العلمُ اليقيني عن طريق النظر والاستدلال. وعلى الجملة فقد ساهم الاشتغال بالفلسفة عند المتكلمين والفلاسفة المسلمين في الحضارة الإنسانية عامة لأن "**قيمة الحضارة لا تُقاس بما جمعته من الأوائل بل تُقاس بما أضافته إلى التراث الإنساني**" كما يرى عبد الرحمان بدوي. ولم يكن ظهور "علم أصول الدين" إلا لإبراز علاقة العقل بالعقيدة وكذلك كان "علم أصول الفقه" إبرازا لعلاقة العقل بالشريعة.

كان أستاذ الجاحظ إبراهيم النَّظَّام المعتزلي داعيا إلى إعمال العقل واعتماد الشك سبيلا لبلوغ اليقين، وتُحدِّثنا المصادر عن اعتزازه بالعقل وحبه للمنهج الشكي، فقد أطلق العنان للعقل في نقد الأحاديث وأعمال الصحابة وآراء الفقهاء والمفسرين. وتعزز المنزع العقلي بتقدم الثقافة وازدهارها وربما نجد عاملا آخر ساهم في تعزيز المنزع العقلي عند الجاحظ فنشأته في البصرة مكَّنته من الاطلاع على المدرسة البصرية التي كانت تخالف المدرسة الكوفية منهجا وطرقَ بحث. يقول زكي نجيب محمود: "**البصريون يعقلون المسائل بحدود المنطق ومنهاجه والكوفيون يكفيهم الأخذ بالرواية عن الأسلاف كما تُروى**".

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

2/إعلاء الجاحظ من شأن العقل:

اعتبر الجاحظ العقل ميزة ميَّز الله بها الإنسان عن سائر المخلوقات فهو أداة المعرفة ووسيلة الإنسان إلى اكتساب العلوم، فالعقل حَكَمٌ على صحَّة العلم لأنَّ الحواسَّ لا تكون حجَّةً "**والعقل هو الحجَّة**". وبالعقل نتمكَّن من معرفة الظواهر الطبيعيَّة وأحوال الاجتماع الإنساني والأخلاق والقيم فنتبيَّن بذلك الخير والشَّرَّ ونتبيَّن هناك **حكمة الخالق في خلقه**. فالعقل إذن مثَّل سلاحا حارب به الجاحظ الكثيرَ من الأوهام والخرافات والاعتقادات الشَّاذجة وغير ذلك من الظواهر التي لا تخضع للمنطق حيث يقول: "**إنَّ العيون لَتُخطئ وإنَّ الحواسَّ لَتكذب وما الحُكم القاطع إلا للذهن وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس**". ومن مظاهر اعتزازه بالعقل وتحكيمه له إقراره بكونه "**لا إجماع في ما تكذبه التجربة والعقل**".

في كل ذلك يدعو الجاحظ إلى التدبُّر والتفكُّر وإعمال العقل وهو ما جعل أغلب من جاء بعده ممن يدعو إلى العقل يهتدي بهديه في الأمور المُلْبِسة حتى إذا تعلَّق الأمر بالمسائل النقلية وبفهم القرآن إلى حدِّ أنَّ الزركشي في القرن الثامن للهجرة (بعد أفول نجم علم الكلام) يؤكِّد في كتابه "البرهان في علوم القرآن" هذه القيمة التي للعقل والتدبر حيث يقول: "**أصلُ الوقوف على معاني القرآن التدبرُ والتثبت**". بل يرى الزركشي أنه لا تعارض بين المعقول والمنقول في الأصول "**لِما عُلم بالدليل أنَّ العقل لا يُكذِّب ما ورد به الشرع**".

3/المنهج العلمي:

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

قام الجاحظ بدراسة طبائع الحيوان وأساليب عيشه والبيئات التي يعيش فيها وطرق تكاثره وغذائه دراسةً فيها الكثيرُ من الآراء والأفكار المتقدِّمة في زمانه. ومن مظاهر نزعته العقليَّة أنَّه اعتمد في منهجه العلمي سبيل المنهج التجريبي من ملاحظة فتجربة فحكم. ولا نريد أن نُسقط منهجا حديثا على أثر قديم إسقاطا لكن نُنبِّه إلى التشابه الحاصل بين منهج الجاحظ وما يُسمَّى اليوم في العلوم الصَّحيحة "**المنهج التجريبي**". ومن مراحله:

* **الملاحظة**: وتكون إمَّا عن طريق الخبر: "**زعم ابن أبي العجوز**"/" **قال أبو إسحاق**"... وإمَّا عن طريق العيان: "**وقد رأيتُ بيْضَ الحيَّات فكسرتُها لأتعرَّف ما فيها**". وهذه الملاحظة هي بالأساس ملاحظة حسيَّة مباشرة: "**فبينا نحن عنده إذ دخل عليه بعضُ من يجلب الأفاعي من سجستان**"... أي أنَّ الجاحظ كان حاضرا يلاحظ ويرقب.

* **التجربة**: وفيها يتعمَّد وضع الظاهرة موضع الاختبار عن سابق قصد وتحكُّم في ظروف إجراء ذلك الاختبار إذ يقول معترضا على بعض الرِّوايات المتَّصلة بقتل النَّمل: "**وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه باطلا**". ولعلَّ من أوضح الأمثلة على استخدام المنهج التجريبي ما أورده أوان حديثه عن الانتباه الغريزي في الكلب حين قال: "**فلمَّا كان العَشِيُّ صنعْنا به مثل ذلك... وصنعتُ ذلك بكلب لي آخر...**"

وإذا كان النقد هو الخطوة اللاحقة للشك فإن المعاينة والتجربة هي الخطوة المقترنة بالنقد وخاصة في مسائل العلم الطبيعي. وقد ظهر ذلك عند الجاحظ في اتجاهين أولهما قيامه هو نفسه بالمعاينة والتجريب وثانيهما نقل تجارب أساتذته ومعاصريه.

فمن التجارب التي أجراها هو:

- زراعة شجرة الأراك للتأكد مما قيل عن تكاثر الذرّ عليها.
- وضعه عشرين فأرا وعشرين عقربا في برنية زجاج للتثبت مما تفعله العقارب بها.
- عندما أجمع نامٌ بينهم طبيبٌ على أنَّ الجمل إذا نُحر ومات والْتُمستْ خصيتُه وشقشقتُه فإنهما لا توجدان أرسل إلى جزار أن يأتيه بالخصية والشقشقة إذا نحر جملا ففعل. فلم يكتف بذلك وقال له: "**ليس يشفيني إلا المعاينة**" ففعل ذلك.

ومن نقله التجارب التي أجراها غيره نقلُ تجربة أستاذه النَّظَّام عندما سقى الحيوانات خمرا ليعرف كيف يؤثر الخمر في الحيوان. ولم يكتف بنوع واحد بل جرَّب على عدد كبير من الحيوانات كالإبل والبقر والخيل والكلاب. وقد كان الجاحظ يقول: "**العقل المولود متناهي الحدود وعقل التجارب لا يُوقَف منه على حدّ**". وإضافة إلى ذلك يرى أنه "**لا إجماع في ما تُكذِّبه التجربة والعقل**".

* **الاستنباط العقلي**: (القانون أو الحكم).

وهي المرحلة الثالثة من منهجه إذ يخلص إلى استنباط عقلي من خلال التجربة ثمّ يعيد التجربة مرّة أو مرّات ليتأكّد من صحّة ذلك الاستنباط ويتأكّد أيضا من تطابق التجربة الواقعيّة مع الاستنتاج النّظري كقوله عند حديثه عن النور المنبعث عن عين الأفعى: "**ثمّ سألتُ عن ذلك فإذا الأمرُ حقٌّ وإذا هو مشهورٌ في أهل هذه الصّناعة**".

وقد يخلص إلى تعميم قانون عن طريق الاستقراء كما في قوله بعد حديثه عن قوة الأفاعي: "**وكلُّ شيء ممسوح البدن ليس بذي أيْدٍ ولا أرجلٍ فإنه يكون شديدَ البدن كالسّمك والحيّة**".

ويظهر المنزع العقلي في منهجه أيضا من خلال بحثه عن الأسباب وربطها بالنتائج كما يظهر في التفكير المنظَّم والتدرُّج المخطَّط.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

4/ التفكير النقدي:

هو تفكير تحليليٌّ استدلاليٌّ يتجلّى في اعتماد الجاحظ التمحيصَ والنقدَ عند تعامله مع الرّوايات بالتجريح (الطعن) والتعديل ليُرجّح صحّتها أو خطأها أو يُبقي على الشك فيها لأنه لم يجدْ للرّواية اتفاقا مع العقل. يقول إثر ردّه على صاحب المنطق (أرسطو): "**وأمّا الذين ذكروا السّمع والعِشار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادّعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف... فأدّينا الذي قالوا وأمسكنا عن الشّهادة إذ لم نجد عليه دليلا**".

إن تَتَبُّع كتب الجاحظ ورسائله يكشف لنا عقلية نقدية تعتمد العقل الإنساني وتتخذه رائدا وهدفا في تعامله مع مُختلف الموضوعات المعرفية والأدبية. ومن ذلك نقده علماءَ عصره ومُحدّثيه ورُواته وفقهاءه والعلماءَ السابقين والروايات والأخبارَ التي ترِدُه. فهو لا يقبل مثلا ما يرويه الرواة عن الحجر الأسود من أنه كان أبيض اللون واسْوَدَّ من ذنوب البشر ووثنيتهم فيقول ساخرا: "**ولماذا لم يَعُدْ إلى لونه بعد أن آمن الناس بالإسلام**".

وقد نقدَ أهل الحديث لأنهم لا يُحكِّمون عقولهم في ما يجمعون ويروون. ويقول: "**لو كانوا يرْوُونَ الأمور مع عللها وبرهانها خفَّتِ المؤنة**". وبذلك كان الجاحظ سالكا سبيلَ النقد طارقا مواضيع جريئة ومخوفة كرفضه أن يوضع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكانة أعلى من البشر. فهو يرى أن من حق المؤرخ أن يتناول أعمالهم بميزان العقل لأنهم بشر كالبشر يُخطئون ويُصيبون.

ومما يدل على تمكُّن النزعة النقدية العقلية منه جرأته في القول بأن الحلال والحرام **"إنما يُعرف بالكتاب الناطق وبالسُّنَّة المُجمَع عليها والعقول الصحيحة والمقاييس المعيَّنة"**، وقوله بضرورة الخروج على الإمام الظالم في حالة وجود إمام عادل مع القدرة على خلع الظالم وإحلال العالم محله.

لم يتعامل الجاحظ مع المعارف السابقة تسليميا بل نصَّب عقله حَكَمًا فلم يقف من "أرسطو" الذي يُسمِّيه **"صاحب المنطق"** موقف الإجلال بل نقده ولم يقبل منه إلا ما قبله العقل. يقول: **"قال صاحب المنطق:"ويكون بالبلدة التي تُسمَّى باليونانية طبقون حية صغيرة شديدة اللَّدغ إلا أنها تُعالَج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك". ولم أفهم هذا ولِمَ كان ذلك".**

ومن نقده لأرسطو قوله: **"زعم صاحب المنطق أنْ قد ظهرتْ حيَّة لها رأسان فسألتُ أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق فقلتُ: فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيِّهما تأكل وتعضُّ، فقال: فأمَّا السعي فلا تسعى ولكنها تسعى على حاجتها بالتقلُّب كما يتقلَّبُ الصبيان على الرمل، وأمَّا الأكل فإنما تتعشى بفم وتتغذى بفم وأمَّا العض فإنما تعض برأسيها معا"**، يقول الجاحظ:**"فإذا هو أكذب البريَّة".**

ومما يعزِّز هذه النظرة الانتقادية المهيمنة على الفكر الجاحظي انتقاده أرسطو في اعتباره إناثَ العصافير أطولَ أعمارا وأنَّ ذكورها لا تعيش إلا سنة واحدة حيث رأى أنه لم يأتِ بدليل ولامه لأنه لم يقل ذلك على وجه التقريب بل على وجه اليقين.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

5/ الموضوعيَّة:

تتجلَّى الموضوعيَّةُ من خلال رفضه التَّسرُّعَ في الحكم والتعجُّل بالتصديق أو بالتكذيب قبل التثبت: **"ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر كما لا يعجبني الإنكار له"**. وتتجلَّى الموضوعيَّة في إيراد الرِّوايات بسند صحيح ثابت كما سمعها أو نقلها إليه الثِّقاتُ دون أيِّ حكم مسبق لها أو عليها. ثمَّ هو بموضوعيَّته يطرح وجهات النظر المختلفة في المسألة التي يدرسها طرحا موضوعيًّا من غير تدخل أو إصدار حكم كفعله حين أورد الرِّوايات المختلفة التي سمعها عن طريق ولادة الأفعى. ومن القرائن الدَّالَّة على موضوعيَّته دعوته إلى عدم الاغترار بظواهر الأشياء أو الاستناد على المظاهر في تقييم الأمور إذ يقول: **"أوصيك أيها القارئ المتفهِّمُ وأيُّها المستمعُ المنصتُ المصيغُ أن لا تحقر شيئا أبدا لصغر جثته ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه"**.

إنَّ هذه الموضوعيَّة قد مكَّنت الجاحظ من استقلال فكريّ فلم يكن تابعا لأي عالم مهما علا علمُه إلا متى أقرَّ بصحَّة رأي من آراء أساتذته بدليل أنه ردَّ على أرسطو ولم تمنعه القيمة العلمية لـ"صاحب المنطق" كما يسميه من نقده وذلك بادٍ في قوله مثلا: **"وما يليق بمثله أن يخلِّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان"**.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

6/ الشك المنهجي:

الشك عند الجاحظ ليس شكًّا فلسفيًّا ناتجا عن انعدام الإيمان بوجود حقائق أو معارف ثابتة كما هو الحال عند الفلاسفة المتشكِّكين فمجرّد الشك إنما هو عنده منهج في البحث وسبيل إلى المعرفة الثابتة. فلم يُرِدِ الجاحظ الشك لمحض الشك ولا يقبل أن يكون الشك كيفما اتفق ولا في كل أمر على حدٍّ سواء ولا بالطريقة ذاتها.

إن الشك الجاحظي بهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن شك الإمام الغزالي والفيلسوف الفرنسي ديكارت فكلٌّ أراد الشك طلبا للحقيقة على أن لكل واحد فضلَه ومجالَه. والشكُّ عند الجاحظ مهارة يكتسبها المتعلم بالمراس ليَيْسُرَ عليه تبيُّنُ مواطن التهافت (الضعف) في الرأي أو الظاهرة لذا يقول: "**تعلَّم الشكَّ في المشكوك فيه تعلُّمًا**".

وبناءً على ما سلف فالشكُّ المنهجيُّ وسيلة في اكتساب المعرفة ومنهج لتقدم العلوم فهو الذي يضمن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أكثرَ تثبتا وأقربَ إلى اليقين إذ يقول على لسان أستاذه النظّام : "**ولم يكن يقين قطُّ حتى كان قبله شكٌّ** ".

ومن أمثلة الطعن تعامله مع خبر "**حية بلْعنبر**" التي قيل إنها تعمد إلى الرمل في اليوم الذي اشتد حرُّه حتى لا تطيقه الملامسة وتدفن جزءًا منها في الرمل ثم تنتصب كأنها عود ويأتي الطائر ليحط فوق العود الموهوم فتلتهمه. فقال بعد إيراد الخبر: "**وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحيّة تهتدي لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود... وفيه قلة اكتراث الحية للرمل الذي عاد كالجمر**".

7/ الحجاج:

يحتلُّ الخطاب الحجاجي مكانة مركزية في الفكر الإنساني عامة والمنطق خاصة لذلك اهتم به الكثير من الدارسين واشتغل به العديد من الفلاسفة ووظفه بصفة خاصة في ثقافتنا علماء الكلام. وفي الكتابة الحجاجية تؤخذ بعين الاعتبار جملة من المقومات التي ينهض عليها الخطاب الحجاجي أهمها دقة الحجة وترتيب الحجج والمعجم واللغة والصياغة والبلاغة. وفي إطار تعريف الحجاج يقول ابن سينا: "**هو ذلك الكلام الذي تُذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور**". ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول إن الخطاب الحجاجي برهانيٌّ في مستوى الصياغة وصيرورة الخطاب ولكنه وجداني نفساني في مستوى الدلالة. فالتأثير في المستمع يكون تأثيرا بخطاب العقل والبرهان وتأثيرا بخطاب العاطفة والوجدان.

تقوم بنية الخطاب الحجاجي على ثلاثة أقسام كبرى هي:

* طرح القضية التي يراد تأييدُها أو دحضُها.
* تحليل جوانب القوة في المقولة التي يراد الاستدلال عليها أو جوانب الضعف في المقولة التي يراد دحضها باستخدام الأدلة والحجج.

* التوصلُ إلى نتيجة : تأييد القضية أو إسقاطها أو اتخاذ موقف توفيقي بين هذا وذاك.

ومن أمثلة هذا البناء في نصوص الجاحظ وهي كثيرة نص: **العقل هو الحجة.**

والملاحظ أن المحاجج قد يعمد إلى تأخير الأطروحة أو تقديم النتيجة ولكن في كل الحالات يمثل الخطاب الحجاجي مظهرا من مظاهر المنزع العقلي وأسلوبه. ولا تخرج وظائف الحجاج عند الجاحظ عن المألوف في الحجاج إذ يكون عادة إما للإقناع وهذا باد أكثر في مقولات الشرع والمسائل الاعتقادية. وإما إثبات صحة حكم من الأحكام وإما لدحض رأي لا يقبله.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

أنواع الحجج وطرائق الاستدلال:

الحجج عنده كثيرة ومتنوّعة. ولكن يمكن الاكتفاء بنماذج من أغلب أنواعها كالحجة المنطقية/الحجة التاريخية/الحجة بالمقارنة/حجة السلطة (الحجة الدينية في إطار الثقافة العربية الإسلامية)/حجة الشاهد القولي. والذي ينبغي أن يركز عليه التلميذ هو أن **تنوع الحجج مظهر من مظاهر المنزع العقلي لأن المحاجة عملية عقلية بالأساس. هذا كما يجب أن ينتبه وينبه إلى كثرتها وتدرُّجها في القوة.**

8/ الأساليب اللغوية :

يقول جميل جبر عن الجاحظ: "**إنشاؤه سَلِسٌ... بعيد عن التصنع والغموض على وجه الإجمال. وصاحبه من هذا القبيل أقلُّ كتّاب العرب اهتماما بالتزويق اللفظي والتنميق البياني. قال بديع الزمان في وصف كلامه: بعيد الإشارات قليل العبارات قليل الاستعارات منقادٌ لعريان الكلام يستعمله نَفور من معتاصه يُهمله**".

إن أساليب الجاحظ مختلفة متنوعة يجمع بينها وضوح العبارة ودقتها وقدرتها على محاصرة المعنى ويمكن أن نذكر منها:

- الجمل التقريرية: "**إن الله عز وجل لم يردِّد في كتابه ذكر الاعتبار والحثَّ على التفكير إلا وهو يريد أن تكونوا علماء**".
- صيغ الترجيح والاحتمال:"**ولعلَّ كثيرا من الناس ينتابون بعض تلك المواضع**".
- الأسلوب التعليمي: "**اعلم أن الشك طبقات عند جميعهم**".
- الجمع بين أسلوبي الأمر والنهي: "**فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل والعقل هو الحجة**".
- الموازنة بين الجمل: وهي ظاهرة أسلوبية فاشية في كتاباته مثل قوله: "**مواضع الصمت المحمودة قليلة ومواضع الكلام المحمودة كثيرة** ".
- تأكيد الفكرة بنقيضها كقوله: "**الصدق يوجب الثقة والكذب يورث التهمة**". وهو أسلوب المقابلة في علم البديع من درس البلاغة.

– التمثيل: "**فإن المعنى الحقير الفاسد يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرّخ**".

– كثافة الأسلوب التعليمي في صيغ الوجوب والإلزام: "**وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان بعدنا فينا**".

– التعليل: لأنَّ / لكي / حتى..." **لأنَّ اللفظ الرديء الهجين أعلقُ بالقلب**".

– التركيب الشرطي التلازمي كقوله: "**متى ذهب التمييز ذهب التخيير**".

أو استعماله تراكيب تلازمية أخرى من قبيل: إذا كان...فإن/ لولا.../لولا...لما.

– أسلوب الحصر: ما..... إلا / لم..... إلا.....

– التركيب الاسمي التقريري الذي يُستعمل في إعلان حقيقة أو إثبات مُسلَّمة كقوله:

" **أبين الكلام كلام الله**" / "**للأمور حكمان**" / "**الرغبة والرهبة أصلا كل تدبير**".

– الاستفهام الإنكاري: "**كيف يكون الصمت أنفع ؟/ "كيف تسلم القينة من الفتنة ؟**".

– **قياس الشاهد على الغائب**: كما في نصه الذي بيّن فيه أن الرغبة والرهبة أصلا كل تدبير إذ قايس سياسة الملك للناس على سياسة الله لعباده.

استطاع الجاحظ بمثل هذه الأساليب أن يطوع اللغة العربية والنثر العربي على وجه الخصوص لمعالجة المسائل العلمية والفلسفية وعلى رأسها المنطق باستخدامها في مجالات الفلسفة والطبيعيات وغيرها من دوائر المعرفة التي اتسعت لها ثقافته فأسهم في إغنائها بالكثير من المفاهيم والمصطلحات في غير تعقيد وفي غير غموض.

– الميل إلى استخدام اللفظ في معناه الأصلي دون كبير احتفال بالمجاز.

– الميل إلى استخدام العبارة المكتنزة الداعية إلى التفكير الحافزة على القراءة المتأنية المتبصرة وبذلك ربما نفهم قول **ابن العميد** في كتب الجاحظ إذ رأى كونها "**تعلّم العقل أولا والأدبَ ثانيا**".

وإجمالا فإن أسلوبه ولغته مهما كانت فيها من عناية بالتقابل والتوازن فليس لها من مقصد سوى أن تحصر بأكبر قدر ممكن من الدقة مقصد المؤلف. فهي لغة لا تسمح لنفسها إلا في بعض الأحيان بالتفنن في الأسلوب وهي أيضا "**أنموذج رائع للتقدم الحاصل لتلك اللغة العربية القديمة في وهج الفكر والخلافات والتي ارتقت زمن الجاحظ إلى مرتبة لغة التواصل العالمي في أرقى المحافل العلمية**" حسب عبارة أندري ميكال.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

تجليات المنزع العقلي في آرائه الاعتزالية

يقول شارل بلا:" **لقد كان الجاحظ بدون منازع متكلما قادرا على مناقشة بعض مسائل العقيدة مع أتباع مدرسته، وكذلك كان قادرا على الرد على آراء الفرق الأخرى من أهل السنة وغيرهم في مسائل التوحيد أو العدل أو المعارف كما كان قادرا حتى على أن تكون له آراء شخصية تؤهّله ليكون رأس فرقة**".

وفعلا كان رأس فرقة الجاحظية التي لم تكتف بالنظريات والمجرّدات بل حاولت أن تجعل من الطبيعة مخبرا تحاجج به الخصوم الفكريين من الدهريين وغيرهم.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

لقد أرست فرقة المعتزلة أصولا خمسة جعلتها أسس مذهبها وحاول المعتزليون تقديم مبادئ العقيدة الإسلامية في صورة منطقية يقبلها العقل وذلك بتدعيم منظومتهم بحجج عقلية، وهذه الأصول الخمسة تتجلى في ثنايا كتابات الجاحظ أو في بعض عناوين ما لم يصلنا من كتبه على اعتبار أن عنوان الكتاب يحيل على مضمونه:

أ/ التوحيد: هو أهم الأسس إذ نفى أهل الاعتزال أن تكون لله صفات منفصلة عن جوهر ذاته كما خالفوا المشبهة فرفضوا أيّ محاولة لتشبيه الله بالبشر، وللجاحظ المعتزلي رسالة بعنوان **رسالة في نفي التشبيه** وله كتاب بعنوان **كتاب الرد على المشبهة**. ويظهر حرص الجاحظ على مبدأ التوحيد من خلال بحثه في كون دقة المخلوقات وعظيم خلقها دليل على وجود خالق واحد مدبر لها آياته ودلائله هي مخلوقاته.

ب/ العدل: آمن الجاحظ كسائر أهل الاعتزال بالعدل الإلهي في إثابة المحسن ومعاقبة المسيء فقال في سياق حديثه عن الرغبة والرهبة: "**ثم أقام (الله) الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة فقال: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**".

ويقول فؤاد البستاني: "**فالمسلم الحق – في رأي الجاحظ – من آمن أنّ الله تعالى ليس جسما ولا صورة ولا يُرى بالأبصار وهو عدل لا يجور ولا يريد المعاصي**".

ومن استتباعات فكرة العدل عند الجاحظ إقراره بأن الله لا يخلق إلا الخير والإنسان هو الذي يخلق الشر، فحتى الحيوانات السامة القاتلة إنما أراد الله من خلقها أن يُعَلِّمَ الإنسان الصبر على المكاره. يقول في كتاب الحيوان:" **فإذا رأيت شيئا من الحيوان ممّا يشتدُّ ضررُه وتشتدُّ الحراسة منه كذوات الأنياب من الحيات... فاعلم أن مواقع منافعها من جهة الامتحان والبلوى**".

ويرتبط بمبدأ العدل الإيمانُ بامتزاج الخير والشر في الحياة الدنيا وهي رؤية عقلية ترى أن مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر. وفي هذا المجال يمكن أن ندرج قول الجاحظ بمبدأ **التمكن والاستطاعة**. فقيمة الإنسان في قدرته واستطاعته وبهما يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات من البهائم. والوسيلة التي بها يتحقق التمكن

والاستطاعة هي العقل حيث يورد في الحيوان ما نصُّه: "**والفرقُ الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة**". وتبعا لذلك يرى أنه بدون الاستطاعة تنتفي وظيفة العقل.

ج/ الوعد والوعيد: يقوم هذا المبدأ على الإيمان بأن عدل الله إنما يتحقق بإثابة المطيع ومعاقبة العاصي لذا نجد الجاحظ يؤكد أهمية الرغبة والرهبة إذ يقول: "**الرغبة والرهبة أصلا كل تدبير**"، وهو تعامل عقلي مع المآل الإنساني المرتبط بالإثابة أو العقاب.

د/ المنزلة بين المنزلتين: ويمكن أن يظهر توظيف هذا المبدأ من خلال توسط الجاحظ بين منزلتين في مجالات مختلفة. فالعقل توسَّط بين الأدب والعلم، والمنهج توسَّط بين الإقرار والإنكار (الشك)، والفكر توسَّط بين الأصيل والدَّخيل وبين الفلسفة والشريعة والأسلوب توسَّط بين النقل والعقل. وهذا التوسط دليل التزام الجاحظ بهذا المبدأ الذي ارتآه واصل بن عطاء الغزال مؤسس المعتزلة في مرتكب الكبيرة.

هـ / الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اتخذه المعتزلة قاعدة السلوك العملي للمؤمن في المجتمع لذلك نجد الجاحظ يؤكد على مستوى الأخلاق الفردية أهمية الحث على الفضائل والتحذير من الرذائل. وتوظيف العقل في هذا المجال أوصل الجاحظ إلى أنه ما دام الإنسان في صراع بين طبيعته الخيِّرة وغرائزه الجامحة فهو مظِنَّةُ الخطأ لذا وجب على العاقل الأمر والنهي تخليصا للأنفس من شراك الآثام.

وإجمالا آمن الجاحظ بأن العقل هو السبيل إلى الإيمان الصحيح لأنه هو الأداة التي بفضلها يميز الإنسان الحق من الباطل فيتبيَّن سبيل الرَّشاد وبفضل العقل أيضا يستطيع التأمل والنظر في الموجودات فيتوصل إلى إنتاج المعرفة. وبالعقل يُخلَّص العلم من شوائب الأهواء والأوهام إذ يقول: "**لا يُتعرَّف ما فيها (أي الموجودات) من دقائق الحكمة وكنوز الآداب وينابيع العلم إلا بالعقل الثاقب اللَّطيف**".

تجليات المنزع العقلي في آرائه الفكرية والاجتماعية والأخلاقية

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

أ / العقل والمعرفة:

يربط الجاحظ المعرفة والعقل بالحاجات الإنسانية وضروراتها. فعلى قدر الحاجة تكون المعرفة وتُسطَّر حدود العقل، فإذا تجاوزت الحاجة إشباع الضروريات الأولية لتشمل حاجات اكتسابية ثانوية توسَّعت دائرة المعرفة عند الإنسان وتوسَّعت آفاق عقله. وبهذا المفهوم يصبح العقل هو الوعي بما يحتاج إليه المرء وتصبح المعرفة حاجة ركَّبها الخالق في خلقه. والمعرفة مراتب فإذا ازدادت رقيًّا وتجاوز حدُّ المعرفة المشاهدات من حولنا وطمح الإنسان إلى عالم الغيب ومعرفة الممتنّ عليه بنعمة العقل فإنها تصل إلى المعرفة المحققة للسعادة الأبدية. يقول: "**إنَّ الإنسان يترقَّى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول... حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما أدَّاه إلى الثواب الدَّائم**". فأسمى مراتب المعرفة هي معرفة مواقع الحجج لله وتصاريف تدبيره.

ب/ في النظر إلى بعض قضايا المجتمع والأخلاق :

يرى فؤاد البستاني أنّ الجاحظ "**أول من أدخل إلى آدابنا ذلك الفن الشائق المعروف بنقد الأخلاق**"، ويقصد بذلك الإشارة إلى بعض رسائله في **غش الصناعات وحيل المُكَدِّين وأخلاق الجواري والمغنين** إضافة إلى **البخلاء**. والذي نحتم به في هذا الإطار نزعته العقلية النقدية في تناول الأخلاق فهو إذ يعالج الأخلاق وينبه بأسلوبه إلى الفضيلة إنما يقف موقفا وسطا مثل أرسطو حيث يرى أن "**الفضيلة وسط بين رذيلتين**"، وهو ما يُفهم من قوله متحدثا عن الخصال الحميدة كالصدق والعدل والجود "**ولكل شيء من هذا إفراط وتقصير إنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها**".

ومن مظاهر اعتماده العقل في المجتمع والأخلاق إيمانه بدور التربية في بناء أخلاق الفرد وعقله ومعارفه، فهو يرى أن الأخلاق تُكتسب بالمنشأ وبذلك برّر سلوك القينة حين أبرز فساد منشئها وجَعَلَه سببا لوقوعها في ما عيبت به من تهتُّك. ويمكن لقارئ كتابات الجاحظ أن يتبيَّن منزعه العقلي في التعامل مع الأخلاق أيضا في موقفه ممن ادّعى غلبة الغش على الفُرس فهو يرى أن إرجاع غلبة الغش عليهم إلى خلو لغتهم من كلمة "**نصيحة**" حجةٌ داحضة وحكم لا يقبله العقل ولا ينهض دليلا على "**الغش الغريزي الذي فيهم**". وكذلك خلو لغة الروم من كلمة "الجود" لا يمكن بحال أن يكون دليلا على غلبة البخل عليهم. وهو ما أكّده بعدَه غيرُ واحد من العلماء حيث يقول المعري في قسم الرد من رسالة الغفران "**نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان**"، وحديثا قيل " **إن النقص أو الثغرة في اللغة لا يفترض حتما نفس النقص في القلب**". وهذا التمييز العقلي بين الأمور المشتبهة في شأن الأخلاق عند الجاحظ دليل على غلبة المنزع العقلي عليه.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

ج/ في اللغة والبيان:

كانت نظرة الجاحظ إلى اللغة والبيان أيضا محكومة بمنزع عقلي في عديد المواطن رغم ما قد يبدو من تباعد المجالات ذلك أن الجاحظ قد نظر إلى اللغة نظرة وظيفية عملية. فاللغة عنده **أداة الإنباء عما في النفس** أي أن جوهر اللغة حصول الفهم والتواصل وهو ما ينبع من نظرة اعتزالية تشترط **القصْدَ** في اللغة، فقصْدُ المتكلم عند أهل الاعتزال ضروري حتى يكون الكلام مفيدا، ويمثلون لذلك بكلام المجنون الذي وإن اشتمل أحيانا على الإفادة فإنه مفتقر إلى القصد لذلك لا يُؤبه به. كما يرى الجاحظ أن اللغة مواضَعَة واتفاق لذلك قال المعتزلة بجواز قلب الأسماء عن مسمياتها إذا اتفق أهل اللغة. وعلى أساس كون اللغة وظيفية غايتها الفهم والإفهام رأى الجاحظ أن البيان لا يكون زينة وحِلْيةً جمالية بل هو وضوح المقصد والقدرة على الإبانة حيث يقول: "**البيان اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى** ". ولهذا نجده يعرّف البلاغة بكونها تناسبا بين المبنى والمعنى.

للنقاش

– يعترضنا في كتابات الجاحظ الموسوعية وخاصة الحيوان العديدُ من الأخبار والروايات والتعليلات التي تخالف العقل والمنطق مثل قوله إن نهر مهران السند (وهو نهر الهندوس الذي ببلاد الهند) مصدرُه نيل مصر. وقد استدلَّ على ذلك بمجرد وجود التماسيح فيه وهو ما جعل المسعودي الجغرافي ينتقده لقلة أسفاره. فهذا الرأي لا يستند إلى دليل علمي. ومن أمثلة ذلك أيضا حديثه عن الذباب الذي يتولَّد من التعفن ومن الباقلاّء إذا عُتِّقت. وله نظائر مما ذكرنا تبدو لنا اليوم أوهاما.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

– محدودية المنزع العقلي عند الجاحظ في بعض المواطن، وتتجلى هذه المحدودية في عدم القدرة على الحسم العقلي في مسائل علمية كحية الدساس مثلا أتلد أم تبيض، وفي مسائل أخرى غير علمية بالمعنى المخبري ولعل ذلك عائد إلى محدودية العقل ذاته. يرى ابن خلدون في المقدمة أن العقل: "**ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمورَ التوحيد والآخرة وحقيقةَ النبوة وحقائقَ الصفات الإلهية وكلَّ ما وراءَ طوره، فإن ذلك طمع في محال**".

– عديد القضايا يفتقر إلى الوضوح العقلي ذلك أنه أحيانا يغلب عليه الطابع الجدلي وقد لا تُفهم هذه النقطة إلا بالتفريق بين الجدل والمنطق. يقول عباس محمود العقاد:"**المنطق بحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والتمييز الصحيح... والجدل بحث عن الغلبة والإلزام بالحجة قد يرمي إلى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة**". ويقول أبو حيان التوحيدي نقلا عن أستاذه أبي سليمان المنطقي: "**إن طريقة المتكلمين قائمة على مكايلة اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء والاعتماد على الجدل... وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع وإسكات الخصم بما اتفق**".

ولعلنا نجد هذه النزعة الجدلية التي ترمي إلى إسكات الخصم صداها عند الجاحظ ففي نص "**العقل هو الحجة**" في الكتاب المدرسي نراه يغلِّب الجدل متوجّها به إلى خصم ضمني هم الأشاعرة وتحديدا في مقولة الخير والشر والحسن والقبيح حيث يرى الجاحظ أن قيمة الحُسْن والقبح يحددها العقل. يقول أحد أعلام المعتزلة: "**العقل هو الذي يكشف عن تلك القيمة والشرع يأتي مثبتا للعقل**". ويقول القاضي عبد الجبار: "**أوْلى الأدلة العقل لأن به يُمَيَّز بين الحَسَن والقبيح**".

– إن الجاحظ في إعلائه من شأن العقل يؤكد البعد الجدلي الكلامي في خطابه ذلك أنه في بعض نصوصه يحيل ضمنيا على خصمه الفكري وهم دعاة النقل خاصة في المسائل النقلية كالأشاعرة إذ يقول الأشعري في تحديد مقومات الإيمان : "**التمسك بكتاب ربّنا وسنّة نبيّنا وما رُوِيَ عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث**".

وهو ما يدعمه الباقلاني بقوله:"**ونقول إن هذه الأحكام بأسرها لا تثبت للأفعال إلا بالشرع دون قضية العقل**".

– كثافة الأساليب الإنشائية الاستفهامية الإنكارية بما فيها من غياب الحياد وانكشاف الموقف الذاتي غير الموضوعي. وتكون غايته عادة حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الكلام حملا تأثيريا لا إقناعيا.

– غموض المعنى لطول التركيب خاصة إذا تعلق الأمر بعودة الضمير فلا يكاد القارئ يتبيَّن على من يعود الضمير.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

– غياب الصرامة المنهجية في بعض المواطن خاصة في استطراداته وفي مواضع الإطناب. يقول شارل بلا: "**فكتاباته تتميَّز عامة بالاستطراد وبالانتقال المفاجئ من موضوع إلى آخر**".

– عادة ما ينتقي قضايا لا يمكن النظر فيها إلا بواسطة العقل.

– حدود العقل: إن للعقل حدودا لا يتخطاها أقرَّها المفكرون قديما وحديثا. ومن ثمة فإن المعرفة عند الإنسان تُشتقى من التأمل العقلي والنظر في الوجود نظرا ماديا تجريبيا ونظرا مجرَّدا. ولكن ثمة من المعارف ما لا يرد إلا من الشارع الذي هو الله. وعلى هذا الأساس فإن الالتزام بالعقل يبدو أمرا نسبيا منذ البدء خاصة في ما يتعلق بالمعارف النقلية. وفي هذا الإطار يرى محمد عابد الجابري منتصرا لرأي ابن خلدون في هذه المسألة أن دور العقل في العلوم النقلية وتحديدا علم الكلام "**ليس البحثَ عن نتيجة جديدة فالنتيجة معطاة سلفا بل البحث فقط عن قنطرة تُمكِّن من نقل الحكم الصادر في الأصل إلى الفرع، وفضلا عن ذلك فالقنطرة المطلوبة يجب ألا تتناقض مع حكمة الشارع من الحكم، الأمر الذي يجعلنا أمام تقليص شديد لدور العقل في العلوم النقلية... فالعقل في العلوم النقلية مجرد مساعد وقد يمكن الاستغناء عنه تماما**".

ومن هنا يمكن أن نفهم أنه لا مندوحة عن "**حصر عمل العقل في حدود لا يجوز تخطيها**" كما يقول الجابري أيضا. ويمكن أن نستدل على هذه المحدودية أيضا بما ورد في النقل ذاته من كون بعض الأمور لا طاقة للإنسان بفهمها الفهم العقلي الخالص، ومن ذلك أن الروح في القرآن لم تُحدَّد بل هي من شأن الله الذي لا مجال للإنسان فيه. قال تعالى في سورة الإسراء: "**يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**". وقال في سورة الحج: "**وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون**".

– مثَّلت آراؤه صدى للفكر الاعتزالي فظل الجاحظ في جملة مواقفه وفيًّا للانتماء المذهبي الاعتزالي ومداره النظر في الخليقة بغاية الاستدلال على الخالق. فلقد ساهمت المرجعية الاعتزالية التي تندرج في إطارها مؤلفات الجاحظ في تحديد الخصائص العامة لتفكيره فجاء مشدودا إلى فضاء الخطاب الديني منغرسا في ثنائية النقل والعقل التي تحكَّمت في الثقافة العربية الإسلامية. وهذا شأن المتكلمين عموما فرغم إفادتهم من الدخيل الوافد ظلوا منشدين إلى منطلقاتهم الدينية، والجاحظ في كتاباته متأثر بهذه المرجعية.

– إن إدراك الله إدراكا عقليا صرفا في كل الدقائق والأحوال أمر عصي عن العقل لسبب كون العقل متناهيا في الإدراك ويروم إدراك ما هو غير متناه. ولذلك يمكن أن نتبيَّن كون بعض الآراء الاعتزالية في بعض المبادئ لا يمكن أن تكون عقلية عقلا محضا. يقول الجابري مفسّرا موقف ابن خلدون من **"عقلانية التوحيد"** ومنتصرا له:" **لقد أخطأ المتكلمون حينما اعتقدوا أنهم يستطيعون الوصول إلى التوحيد المطلق عن طريق العقل. لقد فاتهم أن حقيقة ذات الله وحقيقة صفاته لا يمكن أن يدركهما العقل لأن العقل محصور نطاقه في التجربة والحس. ولذلك فلا سبيل إلى معرفة الله حق المعرفة إلا بالنفس أي بواسطة التصوف الذي يؤدي بنا إلى المشاهدة أي إلى الدخول في اتصال مباشر مع الحقيقة الإلهية**".

– بين الطابع العلمي والأدبي والديني: مقدمة كتاب الحيوان مثلا توهم بتأسسها على منطق التصنيف والتبويب فهو يقسم الكائنات مثلا بما يجعل القارئ أمام أفق انتظار بحث علمي في العلوم الطبيعة هاجسه علمي ينخرط في نشاط ذهني معرفي. ولكنَّ النظر في المتن سرعان ما يكشف عن حقيقة المقاصد التي تنشدُّ في مجملها إلى المجال الكلامي الديني. فلم يكن الجاحظ عالما يفسر الظواهر وإنما كان بالدرجة الأولى أديبا يصدر في التأليف عن المنطلقات التي فيها ينزل خطابه أي علم الكلام الاعتزالي. فكتاب الحيوان من هذا المنظور بحث يهدف إلى الاستدلال العقلي على الشرع. وقد أشار الجاحظ نفسه إلى هذه المنطلقات وهو يصنف الكائنات قائلا: **"ووجدنا كونَ العالم بما فيه حكمةً"**.

إن الأمر في الحيوان لا يتعلق بالحيوان في ذاته أو لذاته وإنما يتصل به من جهة كونه دالا على خالقه ناطقا بحكمته. والجاحظ يخرج بالحيوان عن كونه غاية للبحث إلى كونه وسيلة للتشريع لما هو خارج عنه (الله) وقد أفصح عن هذه المنطلقات صراحة في باب: دلالة الدقيق في الخلق حيث يقول: **"ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة... وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله"**.

نستنتج مما تقدم أن البحث في الحيوان لم يكن بحثا علميا صرفا يهدف إلى التشريع لمبحث جديد في الثقافة العربية الإسلامية أي المبحث الطبيعي بقدر ما كان بحثا كلاميًّا غايته الاستدلال على عظمة الخالق من خلال مخلوقاته.

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

– لئن كان شاغل الجاحظ الرئيسي في البيان والتبيين هو التشريع لمفهوم البيان والتأصيل لعلم البلاغة والتأسيس لقواعد الخطاب فإن المنطلقات الكلامية التي يتحرك في فضائها قد شدته إلى خلفيات دينية واضحة، وقد انتبه الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه **"بنية العقل العربي"** إلى هذا الأمر فقال:" **لقد اهتم الجاحظ كما فعل من سبقوه من رؤاد البحث البياني... بالخطاب القرآني... وغالبا ما جاء ذلك في سياق الرد على الطاعنين في القرآن من المانوية وغيرهم**". ويردُّ الجابري ذلك إلى المرجعية الاعتزالية التي تصدر عن وعي حاد بفضل المتكلمين في نشر ما يسمّيه **"الفهم البياني للإسلام"** أي الفهم القائم على القدرة البيانية في القرآن. وهذا

الوعي بفضل المتكلمين هو الذي خصه الجاحظ بقوله: "**لولا المتكلمون لهلكت العوام... ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون**".

ملتقى أساتذة العربية في ولاية نابل

– إن الجاحظ في البيان والتبيين لم يكن عالم لسان أو بلاغيا يدرس الخطاب فقط وإنما كان ككل البيانيين ينتصر للغة القرآن. وليس تأكيده على البيان والتبيين أو الفهم والإفهام إلا تأسيسا لسلطة البيان كما فهمها أهل الاعتزال والمتمثلة في **إظهار ما غمض من الحق**.

خاتمة:

لم يكن الجاحظ بدْعا من الأدباء أو المفكرين في إعلائه من شأن العقل فهذا ابن المقفع قبله يقول: "**غاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد والسبيل إلى إدراكها العقل الصحيح**". ولكنَّ المختلف مع الجاحظ غلبة المنزع العقلي عليه ودعوته الصريحة إلى الإعلاء من شأنه وجعله الحَكَم في الأمور كلها وهو ما سيؤكده المعري بعده في لزومياته إذ يقول: **كذب الظن لا إمام سوى الـ.....عقل مشيرا في صُبْحه والمساء**

كما يقول: **فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خيرُ مُشيرٍ ضَمَّه النادي.**